الاتجـاه الإشـاري في تفسير القرآن الكريم
مفهومه، ونشأته، وأدلته، وشروطه، وضوابطه

عبد الرحيم أحمد الزقة *

تاريخ وصول البحث: ٢٠٠٦/٥/١٥م **تاريخ قبول البحث: ٢٠٠٦/١٠/٤م**

ملخص

هذا البحث يتناول الاتجاه الإشاري في تفسير القر آن الكريم، الذي يظهر على السنة السالكين طريق رسول الله ε في العبادة والنسك والمجاهدات، وهو طريق الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين الذين صفت نفوسهم من الأكدار البشرية، فساروا في نفس الطريق، وتقربوا إلى الله سبحانه بالتقوى والصلاح، هؤلاء المتقون المتمسكون بـالكتاب والسنة يفيض الله على قلوبهم فيوضات إلهية، وإشراقات نورانية، يختصهم الله سبحانه بها، فيكشف لهم من المعاني ما لا ينكشف لغيرهم في تأويل الآيات القرآنية. وهذه المعاني لا تنكر المعنى الظاهر من اللغة ولا تلغيه، ولا تتناقض معه.

هؤلاء الزهاد الذين بنو ا حياتهم على الورع والتقوى يقع في قلوبهم الفيض الرباني، ويسمى تفسيرهم بالتفسير الإشاري المنضبط بالكتاب والسنة النبوية.

Abstract

This research studies the indicator methods in the interpretation of the Holy Quran. The method of those who follow the Prophet's footsteps in his worship and struggle. The method of the companions and the followers, may the blessings of Allah be upon of them, which make them nearer to Allah.

Those pious people who follow the Holy Quran and the Sunnah. Allah in return gives them special blessings which are not given to others, enabling these people to interpret the Holy Quran in a different and unique way, other people have not thought of. This interpretation does not cancel the literal meaning of the verse or devise it, but it gives a deeper hidden interpretation of the verse. This interpretation is called an indicator interpretation of the holy Quran.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، الذي أنزل النور المبين هداية للعالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، إمام السالكين إلى طريق الحق، ومرشد الخلق، الهادي إلى صراط العزيز الحكيم، وعلى آله وصحبه، والسالكين طريقهم إلى يوم الدين وبعد،

فقد اتجه المسلمون اتجاهات متعددة في تفسير كتاب الله تعالى، وبيان معانيه : لغوية، وعلمية، وتشريعية، وإعجازية، ودعوية، وأدبية، واجتماعية، وعقدية، وبلاغية، وإشارية روحي ة، خدمة لكتاب الله تعالى، دستورهم الذي ينظم حياتهم الدنيوية ، ويحقق لهم السعادة فيها، ويصلح آخرتهم التي إليها معادهم في الحياة الأخروية.

والاتجاه الاشاري من بين هذه الاتجاهات التفسيرية: اختلف العلماء فيه ما بين مؤيد ومعارض، لخلطهم بينه وبين الاتجاه الباطني المنحرف، لاشتراكهما في حمل النصوص على غير ظاهرها باستخدام التأويل.

فالمتصوفة المتفلسفة، والباطنية المبتدعة، والاشاريون: يشتركون جميعاً في مناهجهم التفسيرية في مخالفة ظاهر القرآن الكريم، مع ما بينهم من اختلافات

* أستاذ مشارك، كلية الدراسات الفقهية والقانونية، جامعة آل البيت.

فالمتصوفة المتفلسفة: حكموا نظرياتهم في الحلول والوحدة في تفسير آيات القرآن الكريم، وسلكوا مسلك الباطنية الذين أولوا آيات القرآن بعيداً عن ظواهر معاني الآيات، ودلائل السنة النبوية، وظاهر الألفاظ العربية، حتى ظهر كلا مهم غامضاً بعيداً عن النسق القرآني الكريم.

والباطنيون المبتدعون يرفضون ظاهر القرآن، ويفترضون معاني من نسج خيالهم لا ترتبط بالقرآن بصلة ولا تشهد له اللغة، بل يتأولونه على ما في قلوبهم من الزيغ، وما ركبوه من الضلالة (١)، لتأييد فكرة مسبقة متبناة من أجل تدعيمها، أو نصرة لمذهب معين ابتغاء الفتنة، مما لا يحتمله الظاهر اللغوي للفظ العربي، أو يحتمله احتمالاً بعيداً "، فقلبوا الوضع فجعلوا مذهبهم الذي يعتقدونه، أو فكرهم الذي يعتنقونه أصلاً يفسرون القرآن على مقتضاه، والمفروض أن يكون القرآن هو الأصل، وأن تكون الأ فكار والمذاهب تابعة له، يهيمن عليها بحكمه، ويزنها بميزانه لا أن تكون أقوالهم وأهواؤهم هي المبينة لمعاني القرآن، فهذا تقوّ ل على الله لأنه استبدال أقوال ذوي الزيغ والضلال بمعاني القرآن الكريم[٢].

أما المفسرون الاشاريون : فيؤولون الآيات القرآنية على غير ظاهرها بمعان لا تتعارض مع الظاهر، وإنما توضحه، مع إيمانهم بأن الظاهر هو المراد (٣). ويمكن التوفيق بين المعاني المؤولة والمستنبطة، وبين الظواهر المرادة من الآيات، وهذا من كمال الإيمان ومحض العرفان.

فمن أين جاءتهم هذه المعرفة؟ ومتى نشأ هذا الاتجاه؟ وما شروطه؟ كل هذا دفعني لكتابة هذا البحث لأبين صحة هذا الاتجاه في تفسير كتاب الله تعالى، مادامت هذه الإشارات تخدم كتاب الله، وتزيد في معرفة أسراره، وتوضح معانيه وتنهل من نبعه الفياض وتجعله نافذاً للقلوب، جاذباً للنفوس آسراً للأرواح، و بخاصة بعد أن اختلط الحق بالباطل، وكثر الهجوم على هذا الاتجاه التفسيري، بسبب تأثر جماعة قليلة بالكتب الفلسفية المترجمة، وانتساب جماعة أخرى إلى التصوف وليسوا من أهله، وإنما أدعياء، قصدوا الدجل والتمويه على أغمار المسلمين، وكذلك لأبين أن هذا الاتجاه هو استنباط لمعنى يخدم ناحية من نواح ي الحياة الإسلامية الروحية، والمفسرون الاشاريون الذين تناولوا الجوانب الروحية واستنبطوا المعاني لمعالجة النفس البشرية . وتلبية شعورهم وأحوالهم من الأخلاقيات والفضائل لا يختلفون عن الذين تناولوا الجوانب الفقهية والأصولية . فكما استنبط علماء الفقه والأصول من أ لفاظ القرآن والسنة بطريق الإشارة أحكاماً تشريعية، فكذلك استخرج المفسرون الاشاريون بطريقها علوماً ربانية[٤].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الاستنباط في قوله تعالى: [وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ][٨٣: النساء].

وكما أن استخراج الأحكام من النصوص في الكتاب والسنة لا يتأتى لكل عالم من العلماء، وإنما لمن كانت له القدرة على الاجتهاد بشروطه وأركانه المعروفة في كتب الفقه والأصول، فكذلك التفسير الإشاري لا يتأتى إلا بشروط و أركان. وهذا ما سأبينه في هذا البحث، واضعاً ميزان العدل والاعتدال لهذا الاتجاه الصحيح في تفسير القرآن الكريم، ومبيناً أنه منهج الحق والخير والصواب . فالتصوف معناه الالتزام بالشريعة، وتطبيق أوامر الله سبحانه وتعالى، وعدم الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله ε. وإنه قائم على الإيمان والعلم والتزكية والحكمة.

وهذا هو الذي جعل الشريعة صالحة لكل زمان ومكان وملائمة باعتبار استجابتها لمتطلبات الحياة المتطورة ضمن الأصول والقواعد الشرعية، فيحق تلمس الحكمة والمعرفة، ومعرفة العلل والمناسبات في النصوص، واستخراج ما ينفع ال مسلمين في دنياهم وأخراهم من أحكام وإرشادات . فلا بد من تجديد هذه المعاني، وإزالة اللبس عنها مما ليس منها، وتنقيتها مما

علق بها من العثرات والهفوات التي خالطتها، وإثبات شرعيتها، ليساهم هذا المنهج في نهضة الأمة من ركودها فهي في أشد الحاجة إلى حضارة روحية تربط الروح بالجسد، وتقوم هذه الحضارة على أركان ثلاثة : العلم، والتزكية، والحكمة، اقتداء برسول الله ε علماً وعملاً وإخلاصاً كما قال تعالى :[هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ][٢: الجمعة].

ولذلك قسمت البحث إلى أربعة مطالب:

المطلب الأول : التعريف بالتفسير الاشاري : معناه، لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني : مفهومه ونشأته.

المطلب الثالث : أدلته من القرآن والسنة : وأقوال الصحابة.

المطلب الرابع : شروطه وضوابطه.

المطلب الأول: التعريف بالتفسير الإشاري.

أولاً: تعريفه لغة:

الإشارة لغة: الإيماء، مصدر أومأ يومئ، قال في اللسان أشار إليه، وشور: أومأ ويكون ذلك بالكف وبالعين وبالحاجب...، وأشار الرجل ... إذا أومأ بيديه [٥]. وفي القاموس: أشار عليه بكذا: أمره، وهي الشورى[٦].

ثانياً: الإشارة اصطلاحاً:

هي المعاني التي تشير إلى الحقيقة من غير أن يساق له الكلام، وتستخدم للتفاهم بين الناس إذا عرفوا تأويلها، وأدركوا علاقتها بالشيء المشار إليه، فهي عون للفظ وترجمان له، وتنوب عنه، وهي واللفظ شريكان، وفي هذا يقول ابن قيم الجوزية : الإشارة: هي المعاني التي تشير إلى الحقيقة من بعد، سببها صفاء يحصل بالجمعية[٧] فيستيقظ الذهن لإدراك أمور لطيفة[٨].

ويقول الزركشي [٩]: هي معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة والمواجيد هي ما تجده القلوب من الإلهامات الإلهية، وهي ثمرة الأوراد [١٠]. ويقول الجاحظ: "والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط"[١١]. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص..

وقد قال الشاعر في دلالات الإشارة[١٢].

العين تبدي الذي في نفس صاحبها
من المحبة أو بغض إذا كانا
والعين تنطق والأفواه صامتة
حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

ومن خلال التعريفين: اللغوي والاصطلاحي أقول: إن التفسير الاشاري هو بيان أو تأويل معنى آيات القرآن الكريم بغير ظاهرها، لإشارات خفية تظهر للمفسر، يمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد منها

وهذا ما أشار إليه الألوسي في تفسيره: هي دقائق تتكشف على أرباب السلوك يمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المراده[١٣]. فهذه المعاني تتطابق مع الظواهر المرادة من الآيات القرائية بوجه من الوجوه الشرعية[١٤].

فالإشارة تأويل وراء التفسير وأعمق منه، بما يوضح معاني النص طلباً للوصول إلى الحقيقة التي هي الغاية المرادة من النص القرآني كله، مخالفاً بذلك ظاهره اللغوي بما اعتمده من دليل أو قرينة . وفي هذا يقول الدريني : التأويل شيء وراء التفسير ... بما هو أعمق من التفسير تعقلاً، ونفاذ بصيرة، على ما يفهم من مدلوله اللغوي، ومفهومه القرآني[١٥].

والإشارة تنقسم إلى قسمين: حسية وذهنية.

فالحسية ما تكون في معاني أسماء الإشارة .. وأما الذهنية فهي ما يتضمنها الكلام في معان يه الكثيرة، بحيث لو عبّر عنها لاحتاجت إلى ألفاظ كثيرة . وهذا ما ينطبق على التفسير الاشاري . فالحسي ما يكون في معانيه اللغوية الظاهرة، والذهني ما يكون في معانيه الخفية التي تظهر لأهل التقوى والصلاح . وقد تكون إشارات جلية تضمنتها الآيات التي تشير على كثير من العلوم الحديثة الاكتشاف، وهو الإعجاز العلمي للقرآن

الكريم في هذا العصر[16].

فالنص القرآني تحتجب وراء دلالاته اللفظية أفكار عميقة ومعان دقيقة، والمعنى الحقيقي للتنزيل الإلهي لا يتناهى عند المعاني الظاهرة من الألفاظ اللغوية، بل هناك معان وراء هذه الألفاظ يكشفها الله تعالى لقلوب أصفيائه. فتحت كل حرف من حروف القرآن كثيراً من الفهم يفتح الله به على قلوب أوليائه وأصفيائه كما سيأتي بيانه في حديث البخاري عن ابن عباس في فهم "سورة النصر" وفهم الصحابة لظاهر هذه السورة.

المطلب الثاني: مفهومه ونشأته وأدلته.

إن الاتجاه الإشاري في تفسير القرآن الكريم هو كشف رباني وفيض إلهي، يفيضه الله تبارك وتعالى على قلب من صفا قلبه، وطهرت نفسه، فصفاء القلب وطهارة النفس، تكشفان للسالك أموراً لا يدركها كل الناس، وإنما بطهارة الباطن من كدورات الدنيا والبعد عن الشهوات والاقتداء بسي د الأنبياء في الزهد والورع والاستقامة. فهو كشف لمن تبرأ من الرجس والدنس، وهو مناجاة القلب ومحادثة الروح بعروجها إلى سماء النور والملائكة، وصعودها إلى عالم الفيض والإلهام"[17]. وهذا يعني انشغال القلب بالله على طول الدوام، والإعراض عن الدنيا وعدم سيطرة الغرائ ز على النفس والقلب، وصفاء النفس من الأحقاد وملازمة ذكر الله، كما أمر الله تعالى في كثير من الآيات منها قوله تعالى:[وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً][٧: المزمل] فالله أمر في هذه الآية عباده إلى العبادة والتبتل، وقيام الليل والتهجد والصوم، مما هو في صميم الزهد، ومنها قوله تعالى: [فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا][١٠٣: النساء]، وقوله تعالى:[فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ][١٠: الجمعة]، وقوله تعالى : [إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِ نَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا][٣٥: الأحزاب]. فهنا إشارة إلى أن صفات الإيمان والصدق والصبر والخشوع والسكون والطمأنينة والإحسان إلى الناس والصوم والحفاظ على النفس من الوقوع في الزلل، والقائمين في الليل هي أصول الزهد التي كان رسول الله ε ينتهجها وسلك طريقه الصحابة والتابعون، ثم من جاء بعدهم سلكوا هذا الطريق للوصول إلى إرضاء الله تبارك وتعالى[18].

هذا بالإضافة إلى كثير من الآيات التي صورت الجنة ونعيمها، ورغبت فيها وحذرت من النار وعذابها ورهبت منها كما في قوله تعالى :[إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ][١٣-١٤: الانفطار]. وقوله تعالى:[وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا][١٢: الإنسان]، وقوله تعالى :[إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ] [٤١:المرسلات]، وقوله تعالى :[إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا] [٢١: النبأ].

فكان أسلوب الترغيب والترهيب عاملاً من أهم عوامل نشأة الزهد والدعوة إلى المبالغة في العبادة والقرب من الله للفوز برضاه والجنة، وقد ظهر ذلك بمعناه الحقيقي في رسول الله ε، فقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ε: كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال عليه الصلاة والسلام:"أفلا أكون عبداً شكوراً "[19]. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ε إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وجد وشد المآزر "[20]. وسار على نهجه كثير من الصحابة والتابعين وإلى يومنا هذا في رياضات روحية مع الله سبحانه وتعالى

فالصحابة سلكوا طريق رسول الله ε، وأخذوا عنه، وخطوا خطاه، وظهرت إشاراتهم في تأويل معاني القرآن

عن طريق الإلهام والفراسة. وقد أخذ هذا الطريق عن الصحابة التابعون، ثم أخذه عنهم تابعوهم، ثم جمع غفير من العلماء سلكوا هذا الطريق، طريق الزهد والعبادة والنسك، والتقرب إلى الله، فهم خواص الخواص من المؤمنين الذين راقبوا الله بدرجة الإحسان، وهم في رقابة دائمة، وذكر مستمر سراً وعلانية، منصاعين لأوامر الله تعالى، هؤلاء الصفوة بلغوا أصول الفضائل والرضا بقضاء الله، والاستعداد للقائه مستشعرين رقابة الله المستمرة عليهم.

ومن بين هؤلاء الصفوة ظهر المفسرون الملهمون للمعاني التي تخدم الحياة الروحية، وتعالج النفس البشرية تلبية لشعور هم وأحوالهم في الفضائل والأخلاقيات. هؤلاء السالكون في طريق رسول الله ε حصلت لهم الأنوار الربانية، والفيوضات الإلهية، وعرفوا من المعاني الخفية، وأدركوا ما لم يدركه سواهم [٢١]. فالتفسير الصوفي هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ظاهرها بمقتضى إشارات خفية تظهر لمن سلك طريقاً خاصاً هو طريق الزهد، ومراقبة الله في كل أمر، وهو طريق رسول الله ε والصحابة، والتابعين رضوان الله عليهم.

وقد ورد عن النبي ε ما يؤيد ذلك من أن الله سبحانه وتعالى يفيض من علمه على من يشاء من عباده بالفراسة الصادقة حيث أشار إلى ذلك بقوله ε: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله "[٢٢]. ثم قوله تعالى: [إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ][٧٥: الحجر]، فبالفراسة الصادقة يفيض الله من علمه على من يشاء من عباده لأنها من مقامات الإيمان.

وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية : وقد ينكشف لأهل الإيمان من الأمور الكونية كالعلم بالحوادث الكونية، ومن الأمور الدينية كالعلم بالمأمورات الشرعية، ويدخل في هذا الفراسة والإلهام والإفهام وكل ذلك يسمى كشفاً[٢٣].

ويقول الألوسي : " فالفراسة الصادقة ومدلولها مكاشفة النفس ومعاينة القلب، وهي من مقامات الإيمان، فإذا امتلأ القلب بنور الله نظرت عينا قلبه بنور فأبصر ما لا يحاط وصفاً"[٢٤].

فالتفسير الإشاري لا يتأتى عن طريق العلم والاستدلال، والحدس والظن، وإنما هو كشف رباني يلقيه الله تبارك وتعالى في قلب عبده المؤمن من غير سبب اكتسابي أو حسي ويطلعه على أمور تخفى على غيره[٢٥]، وفي هذا يقول ابن قيم الجوزية "فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق"[٢٦].

فالعلم والتعليم عند المفسرين الإشاريين تعليم رباني يفيضه الله على من يشاء من عباده كما جاء في القرآن الكريم :[فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا][٦٥: الكهف]، ويسمى التعليم اللدني، وعلم المكاشفة، و علم الموهبة وعلم الأسرار، والعلم المكنون، وعلم الوراثة [٢٧]. وهو إلقاء معنى في القلب بطريق الفيض بلا اكتساب وفكر، كما كان يحدث لسيدنا عمر بن الخطاب τ فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن النبي ε أنه قال: "إن يكن في أمتي محدثون فعمر"[٢٨]، ومعنى المحدّث الملهم والمخ اطب في سره، وأنه رضي الله عنه كان إذا رأى رأياً، أو ظن ظناً، أصاب كأنه حُدّث به، وألقى في روعه من عالم الملكوت[٢٩]، فيعرف الصواب من غير دليل ظاهر ويكون من جنس القول والعلم، والظن أن هذا القول كاذب وهذا العمل باطل، وهذا أفضل.

وفي هذا يقول سيدنا عمر τ اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة يكشفها لهم الله Y، وذلك لقرب قلوبهم من الله تعالى[٣٠].

وقد أكد ابن تيمية في فتاواه عدم استبعاد ذلك في حق أولياء الله تعالى المؤمنين المتقين في معرض كلامه عن الإلهام وبين أن الإلهام قد يكون مرجحاً لأحد أمرين متناقضين وأن الترجيح يعتمد على نور ينقدح في قلب المؤمن، ويكون الإلهام أقوى من بعض الأدلة الضعيفة والآراء المبتذلة، وهذا ما فسر به الاستحسان(٣١)، والمصالح المرسلة فإن حاصلها أنهم يجدون في القول والعمل مصلحة في قلوبهم وأديانهم ويذوقون طعم ثمرته(٣٢).

فالفراسة والإلهام حقيقة لا يسع أحد من الناس إنكارها، ولكن هذه الحقيقة لا تعتبر حجة شرعية، لأن الحجة الشرعية لا تؤخذ إلا من الرسول ε، وهذه المعاني التي تأتي عن طريق الفراسة والإلهام تعرض على الكتاب والسنة فما وافقها قبل، وما عارضه ما ترك، لأن هذا يكون حديث نفسي، وهكذا فعل سيدنا عمر τ فقد كان يعرض ما يقع له، على ما جاء به الرسول ε، وكان يشاور الصحابة τ ويناظرهم، ولم يفرض عليهم ما يقع له في قلبه(٣٣).

ولا ينكر أحد من الناس ما لصلاح الإنسان في فهم القرآن، فكلما كان المفسر أورع كان أقرب إلى التأويل، وإذا تجردت النفس من الهوى وخلصت لله، ألهمها الله من العلوم والمعاني بطريق الفيض(٣٤).

هؤلاء الزهاد الذين سلكوا طريق رسول الله ε عرفوا باسم المتصوفة في القرن الثاني للهجرة، هؤلاء الذين عرفوا بالزهد والتفاني في طاعة الله وعبادته، يقومون الليل، ويصومون النهار تزكية لنفوسهم، وتهذيباً لأرواحهم. ظهرت تعاليمهم وأفكارهم ونظرياتهم ولا يستطيع أحد إنكار ذلك. وبعد ترجمة الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية دان بعضهم بمبادئ فلسفية فظهرت تعاليم ونظريات جديدة متأخرة بالفلسفة، والثقافات المقتبسة من المذاهب المترجمة، والأديان المختلفة، هؤلاء خرجوا عن الخط السليم وكونوا لهم فلسفة خاصة بهم، فكان هجوم أهل السنة على هؤلاء وعلى تعاليمهم ، فانقسم التصوف إلى قسمين:

القسم الأول: القائم على البحث والدراسة والمتأثر بالنظريات الفلسفية، والترجمات اليونانية، وبا لأديان الأخرى فتعسف هؤلاء في تأويل آيات القرآن الكريم، وحاولوا إخضاعها لما يتفق ومبادئهم الجديدة، وخرجوا عن ظاهر النصوص القرآنية وأخضعوها لتعاليمهم التي لا تتفق ومراد الله تعالى، فتفسيرهم مبني على مقدمات ثابتة في أذهانهم، وجعلوا القرآن خاضعاً لهذه المقدمات ، ونزلوا المعاني القرآنية عليها، وأن هذه المعاني هي المعاني الحقيقية، وليس هناك معنى آخر للآية(٣٥).

فتفسير هؤلاء وأمثالهم القائم على الثقافات المقتبسة من بعض المذاهب غير الإسلامية القائمة على وحدة الوجود ووحدة الأديان، والنظريات الفلسفية مرفوض مردود، لأنه يخرج القرآن عن هدفه لتحقيق ما ارتكز في ذهنه من مقدمات.

القسم الثاني: وهو التصوف العملي القائم على الزهد والصفاء، وعلى مسلك رسول الله ε، وصحابته الكرام رضوان الله عليهم التصوف القائم على رياضيات روحية مع الله سبحانه وتعالى حتى يصل إلى حالة يفيض على قلبه بعض الإشارات والفيوضات الإلهية في تأويل الآيات القرآنية، وهذه الفيوضات وهذه المعاني لا تنكر المعنى الظاهر ولا تلغيه، بل يمكن التوفيق بنيهما وبين الظواهر المرادة.

فالنصوص على ظواهرها، ولكن فيها إشارات خفية إلى دقائق تتكشف على أرباب هذا المسلك دون مقدمات ومبادئ منقدحة في أذهانهم كما هو الحال عند المفسرين الباطنيين الذين يعتنقون المبادئ الفاسدة التي لا تتفق مع الشريعة، أو المفسرون الذين تعسفوا في تأويل الآيات القرآنية للربط بينها وبين المقدمات والفلسفات التي يعتقدونها.

فهؤلاء المتصوفة من الزهاد السالكين طريق رسول الله ε الملتزمين بالشريعة، والمطبقين لأوامر الله تعالى، والذين لا يخرجون عنها وعن سنة رسول الله ε قيد

أنملة؛ هم الذين يقع في قلوبهم الفيض، ويسمى تفسيرهم بالتفسير الإشاري أو الفيضي.

فهم علماء أتقياء بررة، ذوو عقائد سليمة، وأصحاب ورع وزهد وتقوى ومحاسبة للنفس، وبذل للمعروف، وكف للأذى، بعيدون عن الجهل والظلام والبدع والأهواء.

وهذه الصفات التي ذكرها القشيري في رسالته عنهم وقال : مجمعون على تعظيم الشريعة، متصفون بسلوك طرق الرياضة، مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آداب الديانة، متفقون على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات، ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفترياً على الله سبحانه وتعالى فيما يدعيه، مفتوناً هلك في نفسه، وأهلك من اغتر به ممن ركن إلى أباطيله(٣٦).

وقال عنهم سهل التستري : (هم خاصة الله وأولياؤه، لا هم للدنيا، ولا الدنيا منهم في شيء، ولا فيما الجنة رغبوا، أخذ منهم الدنيا فلم يبالوا، ووهبها لهم فردوها كما ردها نبيهم ε – لما عرضت عليه، طرحوا أنفسهم بين يديه رضى وسكوناً إليه وقالوا: لا بد لنا مثله أنت أنت، لا نريد سواك، فهم المتفردون بالله كما قال النبي ε: "سيروا، سبق المفردون إلى رحمة الله، قالوا : ومن المفردون يا رسول الله؟ قال : الذين اهتروا بالذكر لله تعالى، يأتون يوم القيامة خفافاً قد حط الذكر عنهم أثقالهم)(٣٧).

قال سهل: هم المشايخ المهترون في الذكر بالذكر لله تعالى، مجالسون كما قال النبي ε: يقول الله تعالى: "أنا جليس من ذكرني حيثما التمسني عبدي وجدني"(٣٨). وقال تعالى: [فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ] [١١٥: البقرة].

فهؤلاء هم الذين أعطاهم الله فهم القرآن، الذين امتلأت صدورهم نوراً وفهموا باطن القرآن، وعملوا بما فيه، واستعانوا بالله على أمر الله كما أمرهم بقوله : [اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ][١٢٨: الأعراف] قال سهل: أمرهم أن يستعينوا على أمر الله، فيقهروا ما في نفوسهم، ويستولوا عليها، وعلى مخالفتها، وأن يصبروا على ذلك تأدباً، وقد قال ε: "من أعطي فهم القرآن فقد أعطي الخير الكثير، ومن فاته فهم القرآن فقد فاته أمر عظيم"(٣٩).

ووصفهم ابن تيمية بقوله : إنهم "علماء أمة محمد ε وهم أفضل الخلق " وقال عنهم في مكان آخر "أنهم خيار الأمة وأنهم على الطريق المستقيم وعلى مذهب أهل الحق وإنهم أئمة الهدى ومصابيح الدجى، وغلطهم قليل بالنسبة إلى ص وابهم، فمن كانت هذه صفاتهم، وكانوا متمسكين بالكتاب والسنة، وداعين إلى التمسك بهما، سالكين طريق رسول الله ε ملتزمين به، يحصل لهم الصفاء الروحي والإدراك التام لفهم حقائق الأكوان والصعود إلى عالم الفيض والإلهام، ويدركون من الحقائق ما لا يدركه سواهم، ويعرفون م ن المعاني بتعليم رباني لا يتأتى عن طريق العلم والاستدلال "(٤٠)، وإنما يتأتى عن طريق الكشف مع الاستقامة والورع، هذا العلم النوراني الذي ينشرح له القلب ويزداد به اليقين، وهو ما بينه النبي ε في تفسيره لشرح الصدر في قوله تعالى:[فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ...][١٢٥: الأنعام].

قال ε: "نور يقذف به في قلب المؤمن فينشرح له الصدر وينفسح، فقيل : وما علامته؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور"(٤١).

وقال ابن قيم الجوزية : فهذه الإشارات لا تنال إلا بصفاء الباطن وصحة البصيرة وحسن التأويل(٤٢).

فعلى قدر قوة الإيمان والتقوى تتجلى المعاني وتبرز الأسرار، وعلى قدر تطهير النفس من الشهوات، وإعمار القلب بذكر الله تتكشف المعاني والحكم الموافقة لكتاب الله، وتعرف الحقائق والأمور من بواطن المعاني بخلاف القلب الخرب المظلم فإنه لا يرى كما أشار إلى ذلك الزركشي في برهانه حيث يقول : اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة، وفي قلبه بدعة أو إصرار

على ذنب، أو في قلبه كبر أو هوى، أو حب الدنيا، أو غير متحقق الإيمان أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر، أو يكون راجعاً إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض"[٤٣].

فمن كانت هذه أوصافهم لا يجوز لجاهل أن يقدح فيهم، أو ينال مما قالوه من المعاني إن لم تكن هذه المعاني خارجة عن ظاهر النص القرآني وإنما توضحه، فهم لم يخرجوا ع ن أصول الكتاب والسنة والآثار، حتى قال ابن الجوزي : إنهم نالوا ثقة الناس، ولم يقدح فيهم حتى من كان متشدداً على الصوفية : أنهم خيار الأمة[٤٤]، وقال عنهم البزدوي : إنهم على الطريق المستقيم"[٤٥]. اختصهم الله برحمته وفي هذا المعنى أشار القشيري إلى تفسير قوله تعالى :[يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ][٧٤: آل عمران] يختص من يشاء بفنون أنعامه، فالرحمة على هذا سبب لتخصيص النعمة لمن أراده يختصه بأنوار التعريف والفهم من الله فيما (يكاشفه به من الأسرار ويلقيه إليه من فنون التعريفات)[٤٦].

المطلب الثالث: أدلة الاتجاه الإشاري في التفسير:

استدل العلماء على الاتجاه الإشاري في التفسير بأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال الصحابة، فالاتجاه الإشاري ليس بدعاً من القول، وإنما نشأ مع نزول القرآن الكريم وتوجيهات آياته في كنف رسول الله ε، والصحابة رضوان الله عليهم.

١- القرآن الكريم

فقد وردت آيات في القرآن الكريم تحض المؤمنين على التدبر والتأمل لمعانيه، فالتدبر والتأمل المطلوب منهم هو الالتفات إلى مقاصد القرآن، ليعقلوا معانيه، ويدركوا مراميه، والمعنى أن يصلوا إلى مراد الله تبارك وتعالى من القرآن، لا أن يفهموا نفس الكلام، فهو بلغتهم ولسانهم، وهم فرسان اللغة، وأرباب البيان، وهم عرب، ولكن النص القرآني يتضمن وراء دلالته اللفظية أفكاراً وأحكاماً، ومعاني عميقة دقيقة لا تتعارض مع ظاهر النص اللغوي اللفظي؛ وإنما توضحه، وتجعله نافذاً للقلوب، جاذباً للنفوس، آسراً للأرواح [٤٧]. فحثهم على التدبر في هذه الآيات ليصلوا إلى مراد الله بعقولهم ومن هذه الآيات:

قوله تعالى : [أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا][٢٤: محمد]، وقوله تعالى : [فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا][٧٨: النساء]، وقوله تعالى :[أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا][٨٢: النساء].

وغير ذلك من التوجيهات القرآنية التي تحض المؤمن على التدبر والتأمل وعدم الغفلة عن ذكر الله كما في قوله تعالى : [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ][١٩٠-١٩١: آل عمران] قال المفسرون: لايفهمون عن الله مراده من الخطاب [٤٨]، وأنه من عند الله سبحانه فقال عنهم : [فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا][٧٨: النساء]، فهناك معانٍ لا تفهم من ظاهر الألفاظ، وإنما عن طريق الفيوضات الإلهية يفهمها العلماء المتدبرون المتقون، كما أشار القرآن الكريم في قوله تعالى :[اتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ] [٢٨٢: البقرة]، فالمتقون يفتح الله عليهم بمعان عن طريق الفيض الإلهي ، لا تفهم من ظاهر النص، وإنما عن طريق الإشارة بتوجيه من الله Y لبعض عباده عليها واستخراجها، ويؤيد هذا الكلام ما جاء في صحيح البخاري عن علي كرم الله وجهه حينما سئل : هل خصكم رسول الله ε بشيء؟ فقال: لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما علمته إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن؟"[٤٩].

فالقرآن الكريم احتوى على معان عميقة، وأسرار دقيقة، وراء الألفاظ كما تشير الآيات الكريمة من قوله تعالى:[مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ][٣٨: الأنعام]، وقوله تعالى:[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ][٨٩: النحل]، فمن يفهم هذا البيان غير أهل الفهم من العلماء والأتقياء الذين أعطاهم الله فهماً كما أشار إلى ذلك سيدنا علي كرم الله وجهه.

وفي هذا يقول الإمام الشاطبي في موافقاته : "فيكون هذا المعنى المستخرج من الآيات حكمة يظهرها الله على لسان العبد"(٥٠).

فالتفسير الإشاري يأتي عن طريق الكشف الرباني والفيض الإلهي، فالله تعالى يلقي في قلب العبد علماً من غير سبب اكتسابي أو حسي، ويطلعه على أمور تخفى على غيره (٥١). ويسمى هذا بالعلم اللدني كما أشار القرآن الكريم: [وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا][٦٥: الكهف]. وقال سبحانه: [وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا][٥٢: الشورى]. فالعلم الظاهر علم عام لعامة الناس يحصل بالكسب والسعي، وأما العلم الباطن وفهم المراد من الآيات فهو علم خاص يفيضه الله تبارك وتعالى. وفي هذا يقول التسترى: "وما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان : ظاهر وباطن وحد ومطلع، فالظاهر: التلاوة، والباطن : الفهم، والحد : حلالها وحرامها، والمطلع إشراف القلب على المراد بها فقهاً من الله عز وجل، فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه، والمراد به خاص"(٥٢). فهم الذين أعطاهم الله تعالى فهم القرآن، هم خاصة الله وأولياؤه، فالقرآن حبل الله، بين الله وبين عباده، من تمسك به نجا ومعنى ذلك أنه لا طريق لهم لفهم القرآن إلا بالله، وهم أهل العلم بالله تعالى والمعرفة به(٥٣)، يفتح الله على قلوبهم من فهم كلامه.

٢- السنة:

وأما السنة فقد وردت أحاديث كثيرة رويت عن النبي ε كلها تفيد أن للقرآن معنى ظاهراً وآخر باطناً، والظاهر هو المفهوم من الألفاظ، والباطن هو المعاني العميقة التي تتضمنها الآيات ويعقلها العلماء، ويطلع عليها أرباب الحقائق من أهل السلوك المتصوفة، ومن هذه الأحاديث:

١- ما أخرجه البخاري قال: حدثني محمد بن عثمان بن كرامة حدثنا خالد بن مخلد حدثنا سليمان بن بلال حدثني شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ε: إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عل يه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته".(٥٤).

٢- ما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود قال: أخبرنا عمر بن محمد الهمداني قال : حدثنا إسحق بن سويد الرملي قال : حدثنا إسماعيل ابن أبي أويس قال : حدثني أخي عن سليمان بن بلال عن محمد بن عجلان عن أبي إسحق الهمداني عن أبي الأحوص عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ε: أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن "(٥٥).وفي رواية : ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع .

٣- وأخرج أبو يعلى في مسنده عن مغيرة عن واصل ابن حيان عن عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي الأحوص عن عبد الله : عن النبي ε: لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله، وإن القرآن نزل على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حد مطلع "(٥٦) (إسناده صحيح).

٤- وأخرج أبو يعلى في مسنده حديثاً آخر بسنده قال: حدثنا سهل بن زنجلة الرازي، حدثنا ابن أبي أويس عن أخيه عن سليمان بن بلال عن أبي الأحوص عن أبي عبدا لله، عن النبي ε قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل حرف منها ظهر وبطن، وقال المحقق : إسناده صحيح[٥٧].

٥- وأخرج الطبرني في الكبير بسنده قال : حدثنا أحمد ابن يحيى الحلواني ، ثنا الغيض ابن وثيق الثقفي ثنا جرير بن مغيره عن واصل بن حيان عن عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي الأحوص عن عبد الله : عن رسول الله ε قال: لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله، وأنزل القرآن على سبعة أحرف، ولكل آية منه ظهر وبطن"[٥٨].

٦- وما أخرجه الطبراني موقوفاً على ابن مسعود ق ال: حدثنا أبو خليفة ثنا محمد بن كثير، ثنا شعبة عن أبي إسحق عن مرة عن عبد الله قال : من أراد العلم فليثوّ ر القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين" [٥٩].

ومعنى قول ابن مسعود : فليثور القرآن: أي يفكر في معانيه وعلمه وتفسيره، وذلك لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر، ا لذي يفهمه كل من يعرف اللسان العربي، لأن المعاني لا تقف عند الظاهر فحسب بل هناك معنى باطن يفهمه أصحاب الموهبة، وأرباب السلوك كما ذكر ابن مسعود [٦٠].

٧- وما روي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مرفوعاً إلى رسول الله ε أنه قال: القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يح اج العباد . وفي رواية : ثلاث تحت العرش يوم القيامة : القرآن يحاج العباد يوم القيامة له ظهر وبطن، والرحم تنادي، ألا من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه اله، والأمانة[٦١].

والظهر: ما ظهر من معانيها لأهل العلم، وما دل عليه ظاهر الألفاظ، وباطنها تأويلها وما ت تضمنه من الأسرار التي اطلع عليها أهل الحقائق[٦٢].

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن الباطن غير الظاهر، فمعنى الظاهر المفهوم العربي المجرد بلسان عربي مبين يفهمه كل من يعرف العربية، ومعنى الباطن فيها المعاني العميقة التي تتضمنها الآيات من أسرار المعاني وهو مراد الله تعالى ويطلع الله عليها الأتقياء من عباده من أهل الكشف، وقد أشار الذهبي إلى ذلك بقوله: فإن هذه المعاني المتكاثرة التي يشتمل عليها باطن القرآن لم تكن في متناول المفسرين جميعاً، كما أنهم لا يتساوون في القدر الذي يدركوه منها ويتفاوتون بمقدار ما بينهم من تفاوت في الأخذ بالأسباب[٦٣].

٣- الصحابة:

والصحابة الكرام رضي الله عنهم، فقد ورد عنهم ما فهموه من المعاني والأفكار التي فهموها عن طريق الفيض الإلهي، باطلاع الله سبحانه وتعالى لهم خارجة عن دلالة الألفاظ.

ففي حديث البخاري عن أبي سعيد الخدري أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، لما سمع قول النبي ε: إن عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة فاختار ذلك العبد ما عند الله، بكى أبو بكر τ وقال: بل نفديك بأنفسنا وأموالنا، فجعل بعض الناس يعجب ويقول : عجباً لهذا الشيخ يبكي أن ذكر رسول الله ε عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة[٦٤].

قال أبو سعيد الخدري τ، فكان رسول الله ε هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا به . وهذا الإعلام الإلهي والكشف الرباني والمعرفة اللدنية.

وقد علق ابن تيمية على هذا الحديث بقوله : فالنبي ε ذكر عبداً مطلقاً، وهذا كلام عربي لا لغز فيه، ففهم الصديق لقوة معرفته بمقاصد النبي ε أنه هو العبد المخير، ومعرفة أن المطلق هذا المعين خارج عن دلالة اللفظ ولكن يوافقه ولا يخالفه، ولهذا قال أبو سعيد : كان أبو بكر أعلمنا به[٦٥].

وكذلك بكى سيدنا عمر بن الخطاب τ عندما نزل قوله تعالى :[الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي][٣: المائدة]، فقد فهم منها أجل النبي ε وقال: ما بعد الكمال إلا النقصان، في حين أن الصحابة فرحوا بها. وما عاش النبي ε بعدها إلا واحد وثمانون يوماً[٦٦]، فسيدنا عمر τ أدرك المعنى الإشاري وهو نعي النبي ε – وأقره النبي ε– على فهمه هذا . فقد أخرج ابن أبي شيبة أن عمر τ لما نزلت الآية بكى، فقال النبي ε: "ما يبكيك؟" قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص، فقال ε: "صدقت"[٦٧].

وكما جاء في ص حيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال : كان عمر يدخلني مع أصحاب النبي ε، فقال له عبد الرحمن بن عوف τ: أتدخله ولنا بنون مثله؟ فقال عمر τ: إنه من حيث تعلم. فسألني عن هذه الآية : [إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ][١: النصر]، فقلت : إنما هو أجل رسو ل الله ε أعلمه إياه، وقرأ السورة إلى آخرها، فقال عمر τ: والله ما أعلم منها إلا ما تعلم[٦٨].

هذا الفهم الذي فهمه ابن عباس رضي الله عنهما – وفهم مثله سيدنا عمر τ هو من فهم القرآن بطريق الإشارة، وهو المعنى الباطني الذي دلت عليه السورة، وبقية الصحابة لم ي فهموا منها أكثر من معناها الظاهر . فهو تفسير إشاري مبني على فهم ومعرفة بحقائق الأمور .

وقد علق ابن حجر في شرح الحديث بقوله : فيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات، وإنما يدركه ويتمكن من ذلك الفهم من رسخت قدمه في العلم وفي التقوى[٦٩].

وقال الشاطبي في موافقاته: فظاهر السورة أن الله أمر نبيه ε أن يسبح بحمد ربه ويستغفره إذا نصره وفتح عليه وباطنها أن الله نعى إليه نفسه[٧٠].

نفهم من هذا أن الصحابة رضوان الله عليهم فسروا القرآن بطريق الإشارة، والفيض الإلهي، وأن الله تعالى يلقي في قلب العبد علماً من غير سبب اكتسابي أو حسي، ويطلعه على أمور تخفى على غيره[٧١]، ويسمى هذا العلم؛ بالعلم اللدني، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى:[وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا][٦٢: الكهف].

فالصحابة شغلهم تدبر القرآن الكريم وتلاوته، وشغلهم ذكر الله ودعاؤه، واقتربوا منه بعقولهم وأرواحهم، وناجوا الله بكلامه فوصلوا إلى دقائق المعرفة، ولطائف الأحوال النفسية من نقاء الروح، وإنابة القلب والخشوع والخشية أمام جلال الله، والشعور بالمحبة له والأنس به، هؤلاء الصحابة الذين سلكوا طريق رسول الله ε في العبادة انكشفت لهم المعاني التي لا تظهر إلا لمن سلك طريقهم، فلا يحصل مثل هذا العلم إلا لمن صفا قلبه، وطهرت نفسه، وكان ملازماً لذكر الله بعيداً عن الشهوات، طاهر الباطن من كدورات الدنيا وبهذا تحصل لهم الأنوار الربانية، ويعرفون من المعاني الخفية عن الحسن الظاهر ويدركون ما لا يدركه سواهم[٧٢].

فطريق الإشارة طريق من طرق المعرفة لا يدركه كل العلماء ولا تظهر الإشارة لكل سالك، وإنما لمن فتح الله قلبه وأنار بصيرته، والمعنى الظاهر هو المراد أولاً، والمعنى الإشاري معنى متوافق مع ظاهر اللغة ولا يتعارض معه، وإنما يضيف إلى المعنى الإشاري معنى جديداً لا يستطيع أحد أن ينكره ما دام لا يتعارض مع ظاهر المعنى القرآني.

المطلب الرابع شروط التفسير الإشاري وضوابطه

بعد أن بينا في المطالب السابقة معنى الاتجاه الإشاري في التفسير لغة واصطلاحاً وتحدثنا عن نشأته وأدلته، نتحدث في هذا المطلب عن شروطه وضوابطه. فالعلماء الذين أجازوا الاتجاه الإشاري في التفسير وضعوا له شروطاً وضوابط ليكون بعيداً عن تأويلات الباطنيين المنحرفين، والقائلين بالتشهي، فإذا توافرت هذه الشروط وتحققت هذه الضوابط، كان مقبولاً وهي

١- **أول شرط** من هذه الشروط أن يكون المعنى الإشاري مرتبطاً مع المعنى الظاهر للألفاظ العربية للآية القرآنية، وذلك لأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ولسانهم، قال تعالى : [إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ][٢: يوسف]. ففهم القرآن الكريم يتوقف أولاً على فهم اللغة العربية، لأ نها الأساس، فارتباط المعاني القرآنية بالألفاظ العربية أمر ضروري، لأن اللفظ وسيلة لتحصيل المعنى.

وقد كشف أبو الليث السمرقندي في مقدمة تفسيره عن خطورة تفسير القرآن الكريم من غير علم باللغة العربية، فالتفسير غاية لا بد لها من وسيلة، والوسيلة هي علوم اللغة العربية. وفي هذا يقول : فلا سبيل إلى فهم القرآن إلا بالنظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق، ولأن القرآن نزل بلغة العرب ولا يمكن استيعاب المعاني إلا بفهم اللغة[٧٣]، فيجب على المفسر معرفة طرق العرب في التعبير، ومعرفة أساليبهم في البيان؛ لأنهم هم المخاطبون به، كما يجب معرفة الحقيقة والمجاز، ليحمل الكلام على الحقيقة أولاً، ولا يعدل عنها إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة، ولا مانع من الجمع بينهما إن لم يكن في ذلك تعارض أو منافاة، وعلى هذا فكل تفسير يجب أن يوافق مقتضى ظاهر اللفظ العربي، والمراد منه، كما قال الفخر الرازي: "نزل القرآن بلغة العرب فلا يجوز حمله على خلاف ما يكون حاصلاً في لغة العرب [٧٤]. فالخروج عنها يؤدي إلى دخول الآراء الباطلة، ويفتح الطريق أمام أهل الأهواء لتحريف معاني القرآن الكريم، لأنه وضع للكلام في غير موضعه، فالألفاظ هي أوعية المعاني والتكليف مرتبط بهذه الألفاظ الظاهرة، ولا يرتبط بالمعاني الإشارية البعيدة التي لا يدل عليها، فمن جهل اللفظ لم يفهم المعنى، فاللغة آلة لعلم كتاب الله تعالى[٧٥]، كما أنه لا يمكن أن يكلف الله تعالى عباده إلا باللغة التي يفهمونها من مدلولات ألفاظهم، فالمعنى الباطني أو الإشاري لا يكون خارجاً عن مدلول اللفظ القرآني الظاهر من لسان العرب، بل يكون مدلوله، وله شاهد نصاً أو ظاهراً يشهد لصحته، حتى لا يكون دعوى من غير دليل[٧٦].

وهذا الشرط هو الضابط الأول للتفسير الإشاري: وهو عدم مخالفة اللغة، لأن مخالفتها يؤدي إلى فتح الباب أمام أهل الزيغ والضلال وأهل الأهواء لتحريف كتاب الله، فما ورد مخالفاً للغة لا يقبل وكل ما نقل عن السلف الصالح جار على ما تقتضيه العربية . وما تدل عليه الأدلة الشرعية. ومن أمثلة ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى :[وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ][٣٥: البقرة]، فقد فسرها سهل التستري بأن النهي لم يقع عن مجرد الأكل، بل عما ينشأ عن الأكل من السكون لغير الله، إذ لو انتهى عما نهى الله عنه لكان ساكناً لله وحده، فلما لم يفعل وسكن إلى أمر في الشجرة غره به الشيطان وهو الخلود في الجنة أضاف الله إليه لفظ العصيان، كما جاء في [١٢١-١٢٢: سورة طه]: [وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى] وهذا صحيح مقبول[٧٧].

قال التستري : " ولم يرد الله معاني الأكل في الحقيقة، وإنما أراد معاني مساكنة الهمة مع شيء هو غيره أي لا يهتم بشيء هو غيره، فآدم صلوات الله عليه لم يعتصم من الهمة والفعل في الجنة، فلحقه ما لحقه من أجل ذلك، وكذلك من ادعى ما ليس له، وساكنه قلبه ناظراً إلى هوى نفسه فيه لحقه الترك من الله عز وجل مع ما حل عليه نفسه إلى أن رحمه، فيعصمه من تدبيره وينصره على عدوه وعليها، يعني إبليس، فأهل الجنة معصومون فيها من التدبير الذي كانوا به في دار الدنيا، فآدم صلوات الله عليه لم يعصم من مساكنة قلبه تدبير نفسه بالخلود لما أدخل الجنة، ألا ترى أن البلاء دخل عليه من أجل سكون القلب إلى ما وسوست به نفسه، فغلب الهوى والشهوة على العلم والعقل والبيان ونور القلب لسابق القدر من الله تعالى حتى انتهى كما قال النبي ع:"إن الهوى والشهوة يغلبان العلم والعقل"[٧٨].

ومثل ذلك في تفسير قوله تعالى :[فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ][٢٢: البقرة]، ففسر التستري الأنداد : الأضداد، فأكبر الأضداد: النفس الأمارة بالسوء، المتطلعة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله(٧٩). وهذا المعنى وإن لم يكن من الأضداد التي عبدوها إلا أنه جعل ذلك ندا في الاعتبار الشرعي، بعدم مراعاة حقوق خالقه، وهذا هو الذي يعنىبه الند بالنسبة لنده(٨٠).

فأنزل الآية على النفس الأمارة وإن لم تنزل فيها، وإنما نزلت في كل ما يعبد من دون الله من أصنام وشياطين.

وقد وضح الشاطبي تفسير التستري لهذه الآية وبين إشارته فقال: إنه لم يعن إن هذا هو تفسير الآية، ولكن أتى بما هو ... الاعتبار الشرعي الذي شهد له القرآن من وجهتين : أحدهما أن الناظر قد يأخذ من معنى الآية معنى من باب الاعتبار فيجريه فيما لم تنزل فيه، لأنه يجامعه في القصد أو يقاربه، لأن حقيقة الند أنه المضاد لنده الجاري على مناقضته، والنفس الأمارة هذا شأنها لأنها تأمر صاحبها بمر اعاة حظوظها لاهية أو صادة عن مراعاة حقوق خالقها، وهذا هو الذي يعنى به الند في نده، لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه... ثم يدلل الشاطبي على ما ذهب إليه ويقول : وشاهد صحة هذا الاعتبار قوله تعالى :[اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ] [٣١: التوبة] وهم لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم ائتمروا بأمرهم، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان..

والثانية أن الآية نزلت في أهل الأصنام، فإن لأهل الإسلام فيها نظراً بالنسبة إليهم، ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه – قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان : أين تذهب بكم هذه الآية : [أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا][٢٠: الأحقاف] وكان هو يعتبر نفسه بها، وإنما أنزلت في الكفار لقوله تعالى:[وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِـي...] نفسها فسيدنا عمر رضي الله عنه أجرى معنى الآية في معنى لم تنزل فيه خوفاً منه أن يكون التوسع في المباحات سبباً في الحرمان من نعيم الآخرة ومتاعها (٨١).

٢- الشرط الثاني:

أن لا يخالف المعنى الإشاري نصاً من نصوص الشريعة فكل معنى من المعاني التي ترد ع ند المفسرين الإشاريين تعرض على الكتاب والسنة، فإن وافقهما قبل، وإلا كان مردوداً على صاحبه لأن الشريعة هي الحاكمة، وهي التي يقاس بها الناس: وفي هذا المعنى يقول الجنيد: "مذهبنا مقيد بأصول الكتاب والسنة"(٨٢).

فهذه الإشارات التي تظهر لأرباب السلوك من أهل الإيمان يتطرق إليها ما يتطرق للاجتهاد، وقد سماها ابن القيم أنواراً فقال: والقوم يلوح لأحدهم أنوار هي من ثمرات الإيمان، ومعاملات القلوب، وآثار الأحوال الصادقة فيفيد الظن ولا يفيد اليقين فتعرض هذه الكشوف على الكتاب والسنة فإن قبلاه صح، وإلا رفض(٨٣)، وعدم رفضه لعدم منافاته لظاهر القرآن ولوجود الشاهد الذي يعضده من الشرع(٨٤). ولذلك لا تقبل إشارة إن لم يكن معناها صحيحاً في نفسه، ولا يعرض عن المعنى الظاهر إلا بقرينة من حكم شرعي ثابت.

ولهذا نقول: إن الضابط الثاني للمعاني الإشارية التي تردنا عن المفسرين الإشاريين: إن كانت لا تخالف الشرع تقبل وإن كان لا يستقيم تأويلها مع الشرع ومع الظاهر ترد ولا تقبل، لأن حفظ الشريعة أهم: وهي كتاب الله تعالى وسنة نبيه ε وإجماع الأمة. وقد بين الألوسي هذا الضابط بقوله : "فلا يجوز تقليد أهل الكشف في كشفهم، لأن الكشف لا يكون حجة على ا لغير وملزماً له"(٨٥). وقولنا تقبل إن كانت لا تخالف الشرع، لا نعني وجوب الأخذ به لعامة الناس وإنما نعني عدم رفضه لأنه من قبيل الوجدانيات، وهي أمر يجده المفسر من نفسه"(٨٦).

٣- الشرط الثالث:

أن يكون المعنى الإشاري متوافقاً مع المعنى الظاهر، ومضيفاً معنى جديداً يعضد المعنى اللفظي، لا يحل محله ولا يطغى عليه، وإنما هو إشارة من اللفظ يفهمها من فتح الله بصائرهم بمعان مستنبطة من المعنى الظاهر من مدلولات الألفاظ مع عدم المخالفة الشرعية، فإذا تناقضت المعاني الإشارية مع اللفظ الظاهر رفضت وفي هذا يقول ابن تيمية: "من ادعى علماً بباطن، وذلك يخالف الظاهر كان مخطئاً، أو ملحداً، أو زنديقاً، أو جاهلاً ضالاً، فالمعنى الباطني المقبول هو ما وافق المعنى اللفظي"(٨٧). الذي تعبد الله به عباده، ولا مانع من دلالة المعنى الظاهر على معان أخرى أو يؤخذ منه معان أخرى ولكن هذه المعاني لا تقدم على المعنى الظاهر الذي يفهم من اللغة حتى لا يقع الخطأ والضلال . وليس إحالة للظاهر عن ظاهره وفي هذا يقول الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله الإسكندري: "اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله، وكلام رسوله بالمعاني العربية، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له، ودلت عليه في عرف اللسان، وثم إفهام باطنه تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه وقد جاء في الحديث: "لكل آية ظهر وبطن" فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة : هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله، فليس ذ لك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا : لا معنى للآية : إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك بل يقرون الظواهر على ظواهرها، مراداً بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم"(٨٨).

فهذه الطبقة من المفسرين الإشاريين بلغت من النقاء والصفاء ما امتزجت به بالحب الإله ي ففسرت القرآن الكريم بفيوضات ربانية لا تبعد عن دلالته اللغوية والشرعية، كما أشار إلى ذلك القشيري في تفسير قوله تعالى:[لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ][٩٢: آل عمران] فقال: لما كان وجود البر مطلوباً ذكر فيه (من) التي للتبعيض فقال : (مما تحبون) فمن أراد البر فلينفق مما يحبه البعض، ومن أراد (البار) فلينفق جميع ما يحبه، ومن أنفق محبوبه من الدنيا وجد مطلوبه من الحق تعالى، ومن كان مربوطاً بحظوظ نفسه لم يحظ بقرب ربه ويقال : إذا كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البار وأنت تؤثر عليه حظوظك "(٨٩). وهذه إشارة تعني أن الإنسان لن ينال البر وهي الجنة إلا بإنفاق ما يحبه من المال، مؤثراً البر على ما سواه، فإذا أراد القرب من ربه والحصول على رضاه عليه أن يتخلص من حظوظ نفسه، ومتابعة هواه، وهذه إشارة أيضاً إلى الزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله، وقطع حظوظ النفس ومعالجة خطراتها، وحصر وجهة الإنسان إلى الدار الآخرة والسكون إلى ربه

فلا بد من التسليم بأن المعنى الظاهر هو المراد أولاً إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب(٩٠). فلا بد من معرفة المعنى الظاهر أولاً وأنه المراد الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره(٩١).

فلا يدعي أن المعاني الإشارية هي المرادة وحدها دون الظاه ر، لأن الله تعالى أمرنا بالعمل بمفهوم ظاهر الألفاظ، والخروج عن هذا الظاهر يؤدي إلى دخول الآراء الباطلة وفتح الطريق أمام الأهواء وأهل الباطل لتحريف القرآن الكريم كما فسر بعضهم قول الله تعالى:[مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ...] [٢٥٥: من سورة البقرة]، فقال معناه : (من ذل) من الذل (ذي) إشارة إلى النفس (يشف من الشفاء (٤) أمر من الوعي. فهذا التفسير وأمثاله انحراف باطل وإلحاد ظاهر، لأنه خروج عن المعنى الظاهر ومناقض له (٩٢). وتحميل للكلام على ما لا يحتمله، ووضع للكلام في غير موضعه(٩٣).

وهذا هو الضابط الثالث : بأن لا يكون المعنى مخالفاً لظاهر النص القرآني بل يضيف معنى جديداً

للمعنى اللفظي كما أشرنا سابقاً في تفسير ابن عباس لمعنى سورة النصر.

٤- الشرط الرابع:

أن لا يكون التفسير الإشاري متفقاً مع التأويلات الباطنية وذلك بتحميل النص القرآني معنى من المعاني لا يقبله العقل وبالخروج عن الضوابط اللغوية والشرعية، لأن ذلك تحميل للنص ما لا يحتمل، كما يقتضي الحكم على مراد الله تعالى، ومراد رسوله ε بالظن والتخمين (٩٤). فالباطنيون أخضعوا نصوص القرآن الكريم لما يؤمنون به من فكرة وحدة الوجود، أو وجود فكرة مختزنة في أذهانهم فحرفوا المعاني تحريفاً فاحشاً وخرجوا بالقرآن عن مقصده الأساسي، وصرفوا اللفظ القرآني عن ظاهره بغير دليل، وجعلوا القرآن تابعاً لنظرياتهم وأفكارهم، فهذا وأمثاله تفسير بالرأي والهوى من غير دليل شرعي أو نقلي أو لغوي.

وأمثلة ذلك كثيرة في كتبهم(٩٥): منها ما ثبت عندهم من عالم مثالي لهذا العالم المحسوس، فكل ما في هذا الوجود من ماديات فلها في عالم الروحانيات مثال وشبيه، فإذا ما تحدث القرآن عن قصة موسى وما جرى له مع قومه حملوا ذلك على النفس والقلب والصراع بينهما، وما ينزل على القلب من معان، وما يدرك من أسرار، فالفكرة عندهم جاهزة قبل تفسير كتاب الله، وهذا تعسف ظاهر باطل، لا دلالة فيه على المعنى، لا ظاهرة ولا باطنة وهذا هو الرأي المذموم.

فالذين ينحرفون بالمعنى عن ظاهر اللفظ اللغوي، أو يخالفون نصوص الكتاب والسنة لا يقبل منهم، ويكون هؤلاء أصحاب عقائد فاسدة باطنية تعمدوا أن يفسروا القرآن بما يتفق ونواياهم السيئة، ويتفق مع عقيدتهم الباطنية الفاسدة.

والضابط الرابع: أن يكون المعنى الإشاري بعيداً عن التأويلات الفاسدة التي لا تتفق مع الشرع.

٥- الشرط الخامس:

أن يكون المعنى واضحاً لعموم المكلفين، للعمل بما فيه، والاتعاظ به، فليس في القرآن معنى للعوام، ومعنى للخواص، أو ألغاز أو حقائق مستورة عن العوام لا يفهمونها، ولا يعرفها إلا المعصوم كما يقول الباطنيون المنحرفون، بل يجب أن يكون المعنى الظاهر والمعنى الباطن واحداً للعموم "لأن الشريعة عبارة عن الظاهر، والحقيقة عبارة عن الباطن، وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو، فيزول به الانقسام، ولا يكون للشرع سر لا يفشى، بل يكون الخفي والجلي واحداً "(٩٦). والباطن إن كان مناقضاً للظاهر ففيه إبطال للشرع وهو كفر.

والضابط الخامس للتفسير الإشاري: أن لا يقبل إن كان المعنى غامضاً، ويكون مخالفاً لكتاب الله تعالى حيث يقول سبحانه: [وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَات][٩٩: البقرة]، أي واضحات(٩٧) لكل من أراد أن يتعظ أو يتذكر فيعمل بما فيه.

خاتمة:

وبعد هذه الجولة السريعة مع الاتجاه الإشاري في التفسير وبيان صحته، وأنه لا يتعارض مع التفسير اللغوي، وإنما يضيف معنى زائداً يحترم الحياة الروحية للإنسان، نذكر أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وهي:

١- أن التفسير الإشاري لا يتعارض مع التفسير اللغوي وإنما يضيف معنىً زائداً، وهذا المعنى يشترط أن لا يخالف نصاً شرعياً كما قال الجنيد: مذهبنا مقيد بأصول الكتاب والسنة والمعنى الظاهر مقدم عند المفسرين الإشاريين على المعنى الإشاري بخلاف الباطنيين الذين قدموا المعنى الباطني المنحرف على فهم النص بل نفوا المعنى الظاهري وقالوا: إنه غير مراد. فقدموا المبادئ الفاسدة التي اعتنقوها، ووضعوا مقدمات مسبقة لهذه المبادئ وربطوا بين مقدماتهم ومبادئهم التي لا تتفق مع الشريعة وتعسفوا في تأويل الآيات القرآنية لإخضاع هذه

المعاني لأباطيلهم التي يريدون ترويجها، وفلسفاتهم التي اكتسبوا من خارج المعاني الإسلامية

٢- أن التفسير الاشاري غير التفسير الباطني المنحرف الذي يخرج عن حدود الشرع واللغة، فالتصوف معناه الالتزام بالشريعة وتطبيق أوامر الله

وعدم الخروج عن كتاب الله وسنة رسول الله ε.

٣- أن التفسير الاشاري يظهر للمتقين المتدبرين للقرآن السالكين سبيل رسول الله ε، هؤلاء يعطيهم الله فهماً لا يتعارض مع المعنى اللغوي والاتجاه الاشاري من عنده، في تفسير الآيات القرآنية النابع من تقوى الله نتيجة التربية السلوكية يحقق الكمال باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه. كالفهم الذي فهمه سيدنا عمر وابن عباس من سورة [إذا جاء نصر الله والفتح] وآية [اليوم أكملت لكم دينكم..].

٤- أن التصوف الحقيقي والمعاني والإشارات التي تصدر عن أرباب السلوك، تظهر القيم السامية التي تلائم فطرة الإنسان، وهذه القيم تحارب القيم السلبية المنتشرة بين الشعوب والأمم غير المسلمة، مثل التفرقة العنصرية البغيضة التي يعاني منها العالم في الوقت الحاضر، فكما استطاع التصوف في الماضي بنشر الإسلام فهو قادر اليوم على ذلك ونحن بأمس الحاجة إلى هذه القيم[٩٨].

٥- الإشارة إلهام، والإلهام قد يكون ترجيحاً لأحد أمرين، كما يقول ابن تيمية: وهذا الترجيح يعتمد على نور ينقدح في قلب المؤمن ويكون أقوى من الأدلة الضعيفة، وهذا ما فسر به الاستحسان[٩٩].

٦- أن الخروج عن ظاهر النصوص القرآنية وإخضاعها لمقدمات مسبقة، ونظريات فلسفية مرفوض يجب رده لأنه يخالف الشريعة، وحفظ الشريعة أهم من حفظ تأويل هؤلاء الخارجين عليها فإذا ابتعد الإنسان عن التقرب إلى الله فسيبقى تائهاً شارداً كما قال تعالى: [وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى][١٢٤: طه]

٧- إن سوء الفهم لمعنى التصوف لا مبرر له بل يجب على المسلم السعي للفهم الصحيح لمعنى التصوف وأنه لا يتنافى مع نصوص الكتاب والسنة، ومعرفة حقائق الأمور قبل الخوض فيها.

الهوامش:

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، ج١، ص٢٠٠.

(٢) ينظر: فتحي الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، ط١، دار قتيبة، بيروت، ١٩٩٨م، ج١، ص٢٨٩-٢٩٠.

(٣) ينظر: الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهج العرفان في علوم القرآن، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٢، ص٨٧. والقطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، ص٢٩٥. والذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، ط٢، مصر، ١٩٧٦م، ج٢، ص٣٥٢. وعبد الحميد، محسن، والدوري، قحطان، التفسير، دار المعرفة، وزارة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٠م، ص١٠.

(٤) الغماري، عبد الله محمد الصديق القماري الحسني، بدع التفاسير، ط ١، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٥م، ص١٥١.

(٥) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج ٥، ص١٠٦.

(٦) الفيروز آبادي، القاموس المحيط: مؤسسة الرسالة، ط١، ج٢، ص٦٧.

(٧) الجرجاني، الشريف علي بن محمد بن علي الحنفي (ت ٨١٦هـ)، التعريفات : مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ص٦٩ (فسر الجمعية بأنها اجتماع الهمم في التوجه إلى الله تعالى والاشتغال به عما سواه).

(٨) ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ)، مدارج السالكين، تحقيق : محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٢م، ج٢، ص٤١٦.

(٩) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، ج٢، ص٦٠، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ط ١، مصر، ص١٧٠، وسعود، التفسير الإشاري، بغداد

(١٠) القشيري: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبدالله القشيري النيسابوري الشافعي (ت ٤٦٥هـ)، الرسالة القشيرية، ط ١، دار الكتب الحديثة، مصر، ج ١، ص٢٠٢. وانظر: ابن قيم ا لجوزية، مدارج السالكين، ج٣، ص٦٨.

(١١) الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين، ط ١، مطبعة هارون، القاهرة، ج١، ص٧٨.

(١٢) السابق نفسه.

(١٣) الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، روح المعاني،دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ج١، ص٧.

(١٤) ينظر: العك، خالد عبد الرحمن، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس للطباعة والنشر، ١٩٩٤م، بيروت، ص٢٠٦.

(١٥) الدريني، فتحي، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، ج١، ص٢٨٨.

(١٦) العك، أصول التفسير وقواعده، ص٢٠٦.

(١٧) الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، ج ٢، ص٣٣٨. التفسير ومناهجه في ضوء المذاهب الإسلامية، ولم يذكر اسم المطبعة، القاهرة، ص١٨٨.

(١٨) الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، ط ٣، بيروت، ج٣، ص٩٦.

(١٩) البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري: كتاب التهجد، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث (١١٣٠).

(٢٠) البخاري، صحيح ا لبخاري: كتاب فضائل ليلة القدر، رقم الحديث (٢٠٢٤).

(٢١) الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ج ١، ص١٩. والألوسي، روح المعاني، ج١٦، ص١٩.

(٢٢) الطبراني، المعجم الكبير، ج ٨، ص ١٢١. وقال الهيثمي إسناده حسن، معجم الزوائد، ص٢٦٨.

(٢٣) ابن تيمية، مجموعة الرسائل والمسائل، تحقيق محمد رشيد رضا، ط١، مطبعة المنارة، القاهرة، ج٥، ص٩.

(٢٤) الألوسي، روح المعاني، ج١٤، ص٧٤.

(٢٥) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج ٣، ص ٢٣٢. ومشعان مسعود، التفسير الإشاري، ص١٣٨.

(٢٦) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الجيل، بيروت، تعليق: طه عبد الرؤوف سعد، ج١، ص١٧٥.

(٢٧) المدرس، الشيخ عبد الكريم محمد، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج٥، ص٢٧٧.

(٢٨) أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق : أحمد محمد شاكر، مطبعة دار المعارف، مصر، ج ٦، ص٥٥. والبخاري، صحيح ا لبخاري: ج٥، ص ١٥، ومسلم، صحيح مسلم: ج٧، ص١١٥.

(٢٩) ابن تيمية، مجموع الفتاوى : مطابع الرياض، ط ١، ج٢٠، ص٤٦.

(٣٠) السابق، ج١١، ص٢٠٥.

(٣١) السابق، ج١٠، ص٤٧٣، ج٢٠، ص٤٧.

(٣٢) ابن تيمية، مجموع الرسائل والمسائل، ج٥، ص٢٤.

(٣٣) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان، المكتب الإسلامي، بيروت، ص ٥٣-٥٥. وانظر: التفسير الاشاري، ص١٤٢.

(٣٤) النسفي، عمر النسفي، العقائد النسفية، بشرح سعد الدين التفتازاني، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط٤.

(٣٥) الذهبي، التفسير والمفسرون، ج٢، ص٣٥٢.

(٣٦) القشيري، الرسالة القشيرية، ج١، ص١٨٦.

(٣٧) التستري، سهل بن عبد الله (ت ٢٨٣هـ)، تفسير التستري، دار الكتب العلمية، بيروت، علق عليه ووضع حواشيه محمد باسل عيون السود، ص١٧.

(٣٨) السابق نفسه.

(٣٩) السابق، ص٢٧.

(٤٠) الغزالي، الأحياء، ج ١، ص ١٦. والآلوسي، روح المعاني، ج١١، ص٧٧.

(٤١) الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ج٤، ص٣٤٦. وقال السيوطي في الإتقان، حديث مرسل له شواهد كثيرة يرتقي إلى درجة الصحة، الإتقان، ج٤، ص٢٢٢.

(٤٢) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج٢، ص٤١٨.

(٤٣) الزركشي، البرهان، ج٢، ص١٨.

(٤٤) مشعان، التفسير الإشاري، ص١٣٩.

(٤٥) الدوري، قحطان عبد الرحمن، ورشدي عليان، أصول الدين الإسلامي ، ط ٢، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، ٢٠٠٢، ص٢٥٣.

(٤٦) التستري، لطائف الإشارات، ج١، ص١٥٣.

(٤٧) الذهبي، التفسير والمفسرون، ج٢، ص٣٥٣.

(٤٨) المدرس، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج ٣، ص١٥.

(٤٩) البخاري، صحيح البخاري، ج٩، ص١٣. أحمد، مسند أحمد: ج٢، ص٣٥.

(٥٠) الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات، تحقيق وتعليق محمد عبد الله دراز، ج٣، ص٣٧٠. السمرقندي، بحر العلوم، ج١، ص٢٠٤.

(٥١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج٣، ص٢٢٢.

(٥٢) التستري، تفسير التستري، ص١٦.

(٥٣) السابق، ص١٨-١٩.

(٥٤) محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، الناشر : دار ابن كثير اليمامة، بيروت، ط٣، تحقيق: د. مصطفى البغا، ج٥، ص٢٣٨٤، رقم الحديث (٦١٣٧).

(٥٥) محمد بن حبا ن بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، (١٩٩٣م)، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، ج١، ص٢٧٦، وقال شعيب: إسناده حسن.

(٥٦) أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، مسند أبي يعلى، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٤م، تحقيق: حسين سليم أسد، ج ٩، ص ٨٠، قال: إسناده صحيح، رقم الحديث (٥١٤٩).

(٥٧) المرجع السابق نفسه، ٢٨٧ رقم الحديث (٥٤٠٣).

(٥٨) سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، مكتبة العلوم والحكم، الموصل الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي، ج١٠، ص١٠٥، رقم الحديث (١٠١٠٧).

(٥٩) السابق، ج٩، ص١٣٥.

(٦٠) وانظر: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر، بيروت، ج ٧، ص٣٤٢. الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٢٨٩. وانظر: السمرقندي، بحر العلوم، دراسة وتحقيق : عبد الرحيم الزقة، ج١، ص٢٠٤.

(٦١) مسند عبد الرحمن بن عوف، الناشر دار ابن حزم ، بيروت، تحقيق: صلاح ابن عايض الشلاحي، ص٧٠.

(٦٢) د. محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج ٢، ص٣٥٤.

(٦٣) الذهبي، التفسير والمفسرون، ج٢، ص٢٥٩.

(٦٤) البخاري، صحيح البخاري، ج ٥، ص ٧٣٢٤. ومسلم، صحيح مسلم، ج٧، ص١٠٨.

(٦٥) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج١١، ص٧٨.

(٦٦) الألوسي، روح المعاني، ج٦، ص٦٠. وانظر: الذهبي، التفسير والمفسرون، ج٢٠، ص٣٥٥.

(٦٧) الألوسي، روح المعاني، ج٦، ص٦٠.

(٦٨) البخاري، صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢١، باب التفسير.

(٦٩) ابن حجر، فتح الباري، ج١٠، ص٣٩٧.

(٧٠) الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، ج٣، ص٣٨٤.

(٧١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج٣، ص٢٢٢.

(٧٢) الغزالي، الإحياء، ج ١، ص ١٩. والألوسي، روح المعاني، ج ١٦، ص ١٩. وانظر: محمد غلاب، دراسات معاصرة في الإسلام والمسلمين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص٥٩.

(٧٣) السمرقندي، بحر العلوم، ج١، ص١٥٩.

(٧٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج١، ص١٦٣.

(٧٥) الغزالي، الإحياء، ج١، ص٢٧.
(٧٦) الشاطبي، الموافقات، ج ٣، ص ٢٩٤. والذهبي، التفسير والمفسرون، ج٢، ص٣٥٧.
(٧٧) السابق، ج ٢، ص ٣٦٠. وانظر: التستري، تفسير التستري، ص٢٨.
(٧٨) السابق، ص٢٧.
(٧٩) السابق، ص١٤.
(٨٠) الذهبي، التفسير والمفسرون، ج٢، ص٣٥٩.
(٨١) انظر: الشاطبي، الموافقات، ج ٢، ص ٢٩٨-٢٩٩. وانظر: الذهبي، التفسير والمفسرون، ج٢، ص٣٦٠.
(٨٢) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج٣، ص٤٦٤.
(٨٣) السابق نفسه.
(٨٤) الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي (أ، د)، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، ط ٣، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٩٧، ج١، ص٣٧٤.
(٨٥) الألوسي، روح المعاني، ج٢١، ص١٧٧.
(٨٦) الذهبي، التفسير والمفسرون، ج٢، ص٣٧٨.
(٨٧) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج١٠، ص٢٣٦.
(٨٨) السيوطي، الإتقان، ج٤، ص١٩٧.
(٨٩) القشيري، لطائف الإشارات، ج١، ص١٥٩.
(٩٠) الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ج١، ص٣٧٤.
(٩١) الذهبي، التفسير والمفسرون، ج٢، ص٣٧٧.
(٩٢) السابق: ج٢، ص ٣٧٧. وانظر: الألوسي، روح المعاني، ج٢٤، ص١٢. والإتقان، ج٢، ص١٨٤.
(٩٣) الذهبي، التفسير والمفسرون، ج ٢، ص ٣٧٧. والآلوسي، روح المعاني، ج٢٤، ص١١٢.
(٩٤) السيوطي، الإتقان، ج ٢، ص ١٨٤. والذهبي، التفسير والمفسرون، ج٢، ص٣٧٧.
(٩٥) ومثل ذلك في تفسير قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ][١٢٣: التوبة] أن المراد النفس، و أقرب شيء يلي الإنسان نفسه، فأمرنا الله بقتالها.
(٩٦) الغزالي، الإحياء، ج١، ص١٣١.
(٩٧) المدرس، مواهب الرحمن، ج١، ص٢٢٣.
(٩٨) السيد، عزمي طه، التصوف، ص١٨٤.
(٩٩) انظر: ابن تيمية، الفرقان، ص٥٣. وانظر: ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ٤، ص ١١٩. والفصوص، ج ١، ص٥٠. والذهبي، التفسير والمفسرون، ج٤، ص٢٤٣.